فَتْحُ الْبَيَانِ

فِيْ

تَفْسِيْرِ أَعْظَمِ سُوْرَةٍ

فِيْ الْقُرْآنِ

تأليف

علي بن سالم بن يعقوب باوزير

غفر الله له ولوالديه

من منشورات المركز العلمي والدعوي

حضرموت . غيل باوزير . معيان الشيخ

منشوراتنا تطلب من مكتبة القدس

حضرموت . غيل باوزير

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

تأليف

علي بن سالم بن يعقوب باوزير

غفر الله له ولوالديه

من منشورات المركز العلمي والدعوي
حضرموت . غيل باوزير . معيان الشيخ

منشوراتنا تطلب من مكتبة القدس
حضرموت . غيل باوزير

(تَفْسِيْرُ سُوْرَةِ الْفَاتِحَةِ)

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ، ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساءً ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ ، ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ ، أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

إن سورة الفاتحة سورة عظيمة ، وأهميتها كبيرة ، فهي على إيجازها قد حوت ما لم تحوه سورة أخرى ، فقد تضمنت أنواع التوحيد الثلاثة : الربوبية في قوله : ﴿ رب العالمين ﴾ والألوهية ، في قوله : ﴿ الله ﴾ ، وقوله : ﴿ إياك نعبد ﴾ ، وتوحيد الأسماء والصفات ، في قوله : ﴿ الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ﴾ وفيها إشارة إلى إثبات النبوات والرسالات، وتقرير المعاد ، وما فيه من حساب وجزاء ، وأخبار الأمم وقصصهم، وأقسامهم وعاقبتهم من الإنعام عليهم ، أو إضلالهم والغضب عليهم ، وهي سورة يحتاجها عموم الناس ، صغيرهم وكبيرهم ، عالمهم وجاهلهم ، ذكرهم وأنثاهم ، حرهم وعبدهم ، لأنهم يقرؤونها في صلواتهم المكتوبة في اليوم والليلة سبع عشرة مرة ، ويقرؤونها أيضا في نوافل الصلوات ، فإن قراءتها واجبة على الصحيح ، كما سيأتي إيضاحه بإذن الله تعالى ، فحُقَّ لها أن تكون بذلك أعظم سورة في القرآن [1] .

(سورة الفاتحة)

(١) تنبيه : بالنسبة للأحاديث المستشهد بها في هذه الرسالة كلها صحيحة بحمد الله ، فما كان منها في الصحيحين أو أحدهما فأمرها ظاهر ، وما كان خارجهما فقد صححه الشيخ الألباني رحمه الله تعالى .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ۞ الحمد لله رب العالمين ۞ الرحمن الرحيم ۞ مالك يوم الدين ۞ إياك نعبد وإياك نستعين ۞ اهدنا الصراط المستقيم ۞ صراط الذين أنعمت عليهم ۞ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .

سورة الفاتحة من السور المكية ؛ لقوله تعالى : ﴿ ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم ﴾ من سورة الحجر ، التي هي مكية بالاتفاق .

(مشروعية الاستعاذة قبل القراءة وصيغتها)

تشرع الاستعاذة قبل قراءة القرآن العظيم ، سواء ابتدأ أول سورة أو من أثنائها ، لأمر الله تعالى بها في كتابه الكريم ، وللاستعاذة صيغتان ، الصيغة الأولى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، والصيغة الثانية : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، وكلتاهما صحيحة، يجوز للقارئ أن يستفتح بما شاء منهما، ولو فعل هذه تارة ، وهذه تارة أخرى لكان أفضل وأكمل ، أما أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فيؤيدها قوله تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ ، ومعنى قوله : ﴿ فإذا قرأت القرآن ﴾ أي إذا أردت أن تقرأ القرآن ، وعلى هذا فتكون الاستعاذة قبل قراءة القرآن ، لا بعد الفراغ من قراءته ، كما قد يُظَن ، وإنما المعنى إذا أردت أن تقرأ القرآن الكريم فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، كقوله تعالى : ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ ، ومما يؤيد هذه الصيغة أيضا قوله ﷺ فيمن غضب : (إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد ، لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) متفق عليه .

الصيغة الثانية : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ويؤيدها قوله تعالى : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ ، ولو زاد على ذلك : (من همزه ونفخه ونفثه) لكان أكمل وأفضل لما جاء في السنن من حديث حذيفة رضي الله تعالى عنه حين صلى مع النبي ﷺ ليلة فسمعه يستعيذ في صلاته يقول : (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه) ، والهمز هو الموتة والخنق ، يعني من موتته وخنقه ، والنفخ هو الكبر أي من كبره ، والنفث هو الشعر أي من شعره ، لأن الشعر كثيرا ما يكون من الشياطين ، قال تعالى : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ ، والاستعاذة مشروعة بالاتفاق ، وهي مستحبة عند جماهير العلماء ، عند ابتداء القراءة .

(معنى الاستعاذة)

ومعنى (أعوذ) : ألتجئ وأتحصن بجناب الله تبارك وتعالى ، من شر هذا الشيطان الرجيم ، أن يضرني في ديني ، أو في دنياي ، وأن يحثني على معصية ، أو يثبطني عن طاعة ، و(الشيطان) : مشتق من شطن إذا بَعُد ، وذلك لبعده عن طباع البشر ، وبعده أيضا عن صفات الخير ، فهو بعيد باعتبار هذا المعنى، ومعنى (الرجيم) المرجوم ، أي المطرود فإن الشيطان مطرود من رحمة الله تبارك وتعالى ، وهو ملعون كما قال تعالى : ﴿ وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين ﴾ ، وقال : ﴿ وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ﴾ ، واللعنة هي الطرد والإبعاد عن رحمة الله جل وعلا ، فهو مطرود ومبعد عن كل خير ، و(مرجوم) أيضا بمعنى مقذوف بالشهب ، فإن الله تبارك وتعالى ذكر من وظائف الكواكب والشهب أنها تُرجم بها الشياطين ، فرجيم فعيل بمعنى مفعول أي مرجوم ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ﴾ ، وقال : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظا من كل شيطان مارد ، لا يسَّمَّعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب ، دحورا ولهم عذاب واصب ، إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ ، وقال عن الجن : ﴿ وأنا كنا نقعد منها ﴾ أي من السماء ﴿ مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ﴾ .

(فائدة الصدق في الاستعاذة)

من استعاذ بالله صادقا أعاذه الله ، فعليك يا عبد الله بالصدق في ذلك ، ألا ترى امرأة عمران فإنها لما استعاذت بالله من الشيطان ، بقولها : ﴿ وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ عصمها الله وذريتها ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : (ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان ، فيستهل صارخا من نخسة الشيطان ، إلا ابن مريم وأمه) .

(عدو الإنسان نوعان وعلاجهما)

وقد ذكر الله تبارك وتعالى للإنسان عدوين : عدوا من الإنس وعدوا من الجن ، وبينﷺ علاج هذين العدوَّين ، ذكر ذلك في ثلاث آيات من القرآن الكريم لا رابع لها ، الأولى : قوله تبارك وتعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ ، وهذا في بيان علاج العدو الإنسي خذ العفو يعني ما عفا وسهل ، وأْمُر بالعرف أي المعروف ، وأعرض عن الجاهلين وهم السفهاء ، ثم بين ﷺ بعدها علاج العدو الجني فقال : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴾، والآية الثانية : قوله ﷺ في بيان العدو الإنسي: ﴿ ادفع بالتي هي

أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ ، ثم بين ﷻ علاج العدو الجني ، فقال : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه هو السميع العليم ﴾ ، والآية الثالثة في قوله ﷻ : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون ﴾ .

هذا في بيان علاج العدو الإنسي ، ثم بين علاج العدو الجني فقال ﷻ : ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ وهذا علاج العدو الجني ، فالإنسان يتحصن بما أرشده إليه ﷻ في معالجة هذا العدو ، فالعدو الإنسي علاجه المصانعة والمداراة والإحسان إليه ، فإنه ينقلب ويرجع عن الشر ، لأن أصله خير ، فيرده طبعه وأصله عن الشر والعداوة ، بخلاف العدو الجني والشيطان الرجيم ، فإن طبعه العداوة وأصله الشر ، فلا تصلح معه المداراة ولا المصانعة ، وإنما الاعتصام بربه وخالقه ، واللجوء إلى الله ﷻ هو الذي يكف شره ، ويقي ضرره ، فلا مطمع في زوال عداوته والتوقي من شره بغير ذلك لا سيما وهو يجري من ابن آدم مجرى الدم كما أخبر بذلك النبي ﷺ .

(عداوة الشيطان لبني الإنسان)

والشيطان عدو لآدم وبنيه ، قال تعالى : ﴿ وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ ، ولكن مَن مِنَّا يستشعر هذه العداوة ؟ لو كان بين أحد وآخر عداوة لوجدته يحسب لها ألف حساب ، والشيطان أكبر الخصوم ، وألد الأعداء ومع هذا يغفل أكثر الناس عن توقي شره ، ودفع عداوته ، وقد أقسم بعزة الله أن يضل بني آدم فقال :﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ ، فهو يقسم قسما مؤكدا أنه يسعى حثيثا في إضلال عباد الله جل وعلا فيثبطهم عن الطاعات ، أو يحثهم على المعاصي والمنكرات ، أو يشغلهم بما لا نفع فيه في الدنيا ولا في الآخرة ، ولا يزال هكذا مستمرا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فهو دائما في صراع مع الناس حتى يغلبهم ، إلا من رحم ربك ، وقليل ما هم .

(أنواع الشياطين)

والشيطان كما يكون من الجن يكون أيضا من الإنس ، قال الله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾ ، فالإنس فيهم شياطين كما أن الجن فيهم شياطين ، وذلك أن الشيطان هو كل متمرد في جنسه، وهو من بعد عن الخير وكثر شره ، ففي الإنس شياطين ، وفي الجن شياطين ، بل وفي الحيوانات أيضا شياطين ، فقد جاء في صحيح مسلم من حديث أبي ذر أن النبي ﷺ قال : (يقطع الصلاة المرأة ، والحمار ، والكلب الأسود) قال : قلت : يا رسول الله ما بال الكلب الأسود من الأحمر والأصفر ؟ قال : الكلب الأسود شيطان) ، أي شياطين الكلاب هي السود منها ، لكثرة شرها وتمردها .

(أسماء سورة الفاتحة)

وهذه السورة لها أسماء عديدة من ذلك أنها :

تسمى سورة الفاتحة ، لقول النبي ﷺ : (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب) متفق عليه . سميت بذلك لأمرين الأول : لأنها افتتح بها المصحف كتابة ، فهي أول سورة مكتوبة في المصحف ، والثاني : لأنها تفتتح بها القراءة في الصلاة ، فهي أول سورة من القرآن تقرأ في الصلاة .

وتسمى أيضا : السبع المثاني كما قال الله تعالى : ﴿ ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم ﴾ ، فالسبع المثاني هي هذه السورة فإن آياتها سبع ، ووُصِفت بالمثاني لأنها تثنى أي تكرر قراءتها في كل ركعة من الصلاة .

وتسمى أيضا : أم القرآن وأم الكتاب ، لقول النبي ﷺ : (الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب ، والسبع المثاني) رواه الترمذي ، سميت بذلك لأنها اشتملت على مجمل ما دل عليه القرآن من معان ، فهي متضمنة لجميع علومه ، قال الإمام ابن جرير رحمه الله : والعرب تسمي كل جامع أمر أو مقدم لأمر . إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع . تسميه أمًّا .

وتسمى أيضا : سورة الصلاة ، لقوله تبارك وتعالى في الحديث القدسي : (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدني عبدي ...) إلى آخر الحديث الذي رواه مسلم ، فقوله : (قسمت الصلاة) أي الفاتحة ، من إطلاق الجميع على الجزء ، كقوله تعالى : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ ، أي بقراءتك .

وتسمى أيضا : الرقية ، لما ثبت في الصحيحين أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم مروا بقوم فيهم لديغ ، فطلبوا منهم الرقية ، فرقاه أحد الصحابة بالفاتحة ، فقام وكأنما نشط من عقال ، ثم رجعوا إلى النبي ﷺ وقد أعطوهم غنما ، وسألوه عن ذلك ، فقال النبي ﷺ : (وما يدريك أنها رقية) .

(من فضائل سورة الفاتحة)

سورة الفاتحة سورة عظيمة ، وقد ورد في فضلها عدة أحاديث .

من ذلك أنها أعظم سورة في القرآن ، فقد قال النبي ﷺ لسعيد بن أبي المعلى : (لأعلمنك أعظم سورة في القرآن ؟ ثم قرأ عليه الصلاة والسلام : الحمد لله رب العالمين ، وقال : هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته) رواه البخاري .

ومن ذلك : أنها رقية يستشفى بها من أمراض الجسد الحسية ، وأمراض القلب المعنوية ، كما قال تعالى : ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ . ولما تقدم في حديث اللديغ ، وقول النبي ﷺ لمن رقى بها : (وما يدريك أنها رقية) .

ومن ذلك : أن الصلاة لا تصح إلا بها ، فقراءتها واجبة على الإمام ، والمأموم ، والمنفرد ، في جميع الصلوات ، لقول النبي ﷺ : (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب) متفق عليه ، ولقوله ﷺ : (من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خِداج) رواه مسلم ، وقال ﷺ : (لا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن) رواه ابن خزيمة ، فقوله : (لا صلاة) ، و قوله : (لا تجزئ) دليل على عدم صحة صلاة من لم يقرأ بها ، وقوله : (لا صلاة) و (لا تجزئ صلاة) دليل على أنه يعم كل صلاة ، لأن (صلاة) نكرة في سياق النفي فتعم، وقوله: (لمَنْ لم يقرأ) و قوله : (مَنْ صلى) دليل على أنه يعم الإمام ، والمأموم والمنفرد ، لأن (مَنْ) من صيغ العموم .

ومن ذلك : ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بينما رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضا فوقه ، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال : هذا باب قد فتح من السماء ، ما فتح قط ، قال فنزل منه ملك ، فأتى النبي ﷺ فقال : أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لم تقرأ حرفا منهما إلا أوتيته) رواه مسلم والنسائي واللفظ له ، فهذه بعض فضائلها ، وإلا ففضلها أعظم من ذلك .

(تفسير البسملة)

قوله تعالى : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ هذه تسمى البسملة ، فقوله (بسم) جار ومجرور ، الباء حرف جر ، واسم مجرور بالباء ، والجار والمجرور لا بد لهما من متعلق ؛ لأن الكلام لا يتضح معناه إلا ببيان متعلق الجار والمجرور ، قال الناظم :

لا بد للجار من متعلق ❁❁❁ بفعل أو معناه نحو مرتقي

وبدون بيان متعلق الجار والمجرور لا يتضح المعنى ، بل يكون المعنى مبهما لا فائدة منه ، فلو قال لك شخص : بيدي ، فإنك لا تفهم شيئاً من هذا الكلام ، ماذا بيدك ؟! أكلت بيدك ؟ ضربت بيدك ؟ قتلت بيدك ؟ ذبحت بيدك ؟ رفعت بيدك ؟ قطعت بيدك ؟ حملت بيدك ؟ مسحت بيدك ؟ ماذا بيدك ؟! فإذا قال : أكلت بيدي، اتضح المعنى ، لأنه ذكر متعلق الجار والمجرور وهو : أكلت ، وقبل ذكر هذا المتعلق يكون الكلام مبهما، غير واضح المعنى ، لأجل ذلك قال علماء اللغة : لا بد للجار والمجرور ـ وكذا الظرف ـ من متعلق يتعلقان به .

والجار والمجرور في البسملة متعلقان بفعل متأخر مناسب ، وإنما قدرناه فعلا ، لأن الأصل في العمل للأفعال ، أما الأسماء فإنها لا تعمل إلا بشروط ، وقدرناه متأخرا تيَمُّنا بالبداءة بذكر اسمه تعالى ، وقدرناه مناسبا لأنه أدل على المراد ، وهذا الفعل المقدر يختلف بحسب موضع ورود البسملة ، فإذا أردت أن تأكل وقلت : بسم الله ، يكون التقدير : بسم الله آكل ، أي آكل مستعينا بسم الله ، وإذا أردت أن تذبح وقلت : بسم الله ، فالتقدير بسم الله أذبح ، وهكذا يختلف هذا المقدر بحسب الموضع الذي وردت فيه البسملة ، ومثل ذلك البسملة عند القراءة فإن المعنى بسم الله أقرأ ، أي أقرأ مستعينا بسم الله الرحمن الرحيم .

و(الاسم) هو ما دل على مسمى ، فكل ما دل على مسمى يقال له : اسم ، وهو مشتق من السمة أي العلامة ، لأنه علم على مسماه ، والاسم ههنا مفرد مضاف ، فيعم جميع أسماء الله تعالى ، أي أستعين بجميع أسمائه تعالى على مقصودي ، لما فيها من الخير والبركة ، لأن المفرد المضاف من صيغ العموم ، كقوله تعالى : ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ ، أي نِعَمَه تعالى ، بدليل قوله : (لا تحصوها) ، ولو كانت واحدة لأمكن إحصاؤها .

و(الله) علم على رب العالمين ، وقد ذهب جمهور العلماء إلى أنه اسم الله الأعظم ، الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى ، ولهذا تأتي بقية الأسماء والصفات تابعة له على سبيل

الوصفية له ، كما في قوله تعالى : ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ۞ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ۞ هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى ﴾ .

وأصل (الله) الإله ، حذفت منه الهمزة لكثرة الاستعمال لأن العرب إذا تداولت كلمة من الكلمات وفيها همزة يستثقل معها النطق فإنها تحذفها تخفيفا ، كما حذفوا الهمزة من قولهم : الناس ، فإن أصلها الأناس حذفوا منها الهمزة تخفيفا لكثرة الاستعمال فقالوا : الناس ، ومثلها خير وشر ، أصلهما أخير وأشر ، تقول زيد خير من عبيد ، أي أخير بمعنى أفضل منه فأصل (الله) الإله ، حذفت منها الهمزة ، وأدغمت اللام في اللام ، وتفخم هذه اللام المشددة إذا سبقت بفتح أو ضم ، وهو علم على الرب جل وعلا ، لم يسمَّ به أحد غيره .

وقوله تعالى : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ هذان اسمان لله تعالى ، مشتقان من الرحمة التي هي وصف له جل وعلا ، كما قال تعالى : ﴿ فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾ ، وهذه الرحمة يرحم بها سبحانه وتعالى من يشاء من عباده ، إلا أن بعض العلماء قال : إن الرحمن أبلغ من الرحيم ، لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالبا ، كقتَلَ وقتَّلَ ، وضارب وضرَّاب ، فإن الثاني منهما أبلغ من الأول لكثرة حروفه ، ورحمن أكثر حروفا من رحيم ، فهو أبلغ معنى منه ، فالرحمن يدل على الرحمة العامة الواسعة ، التي عمت كل شيء ، حتى الكفار تشملهم رحمته العامة ، التي تدل عليها الصفة في (الرحمن) ، كما قال تعالى : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ ، و(الرحيم) يدل على رحمته الخاصة ، أي بالمؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ ، إلا أنه يَرِدُ على ذلك قوله تعالى : ﴿ ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما ﴾ فإن الخطاب ههنا عام ، بدليل الآيات التي بعد هذه الآية ، ولهذا عدل بعض العلماء عن هذا التفريق ، وقال : الرحمن يدل على صفة الذات اللازمة ، والرحيم يدل على صفة الفعل المتعدية ، وعلى كل فهما إذاً اسمان من أسماء الله تعالى ، متضمنان لصفة الرحمة العامة والخاصة ، اللازمة والمتعدية ، نسأل الله تعالى أن يمن علينا برحمته ، ويدخلنا بها جنته ، من غير سابق عذاب ، ولا مناقشة حساب ، إنه سميع قريب .

(أسماء الله تعالى قسمان)

وأسماء الله تعالى على قسمين : منها ما هو مختص به تبارك وتعالى مثل (الله) ، قال تعالى : ﴿ هل تعلم له سميا ﴾ ، قيل : هل تعلم أحدا سمي الله غير الله ، وكذلك (الرحمن) قال تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رُسُلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ﴾ ، فالرسل لم تأت إلا بالدعوة إلى عبادة الله الرحمن وحده جل وعلا ، فالرحمن من أسماء الله تعالى الخاصة به لم يُسمَّ به غيره ، ولهذا لما تسمَّى مسيلمة برحمن اليمامة ألبسه الله جل وعلا لباس الذل والصغار فصار لا يُدعى إلا مسيلمة الكذاب، فهذان الاسمان مختصان به جل وعلا، ولهذا قال تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ ، ومثل ذلك رب العالمين ، ومالك الملك ، ونحو ذلك من الأسماء والأوصاف المختصة به سبحانه وتعالى .

وهناك أسماء مشتركة بين الخالق والمخلوق ، تطلق على الله تعالى ، وتطلق على بعض خلقه ، لكن بينهما من الفرق والتفاوت شيء عظيم، كالفرق بين الخالق والمخلوق ، فمثلا من أسمائه تعالى: (رؤوف رحيم) ، قال تعالى : ﴿ إنه بهم رؤوف رحيم ﴾ ، وقال في الرسول ﷺ : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ ، ومن أسمائه تعالى : (المَلِك) ، قال تعالى: ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو المَلِك ﴾ ، وسمى بعض خلقه بذلك، فقال تعالى : ﴿ وقال الملك ائتوني به ﴾، وسمى نفسه ﷻ: (العزيز) ، فقال : ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز ﴾ ، وسمى بعض خلقه بذلك ، فقال ﷻ : ﴿ وقالت امرأة العزيز ﴾ ، وسمى نفسه : (الأعلى) ، فقال تعالى: ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ، وسمى بعض خلقه بذلك فقال لموسى عليه السلام : ﴿ لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾ ، وسمى نفسه : (العظيم) فقال تعالى : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ ، وسمى بعض خلقه بذلك فقال : ﴿ وكانوا يصرون على الحنث العظيم ﴾، وقال : ﴿ ولها عرش عظيم ﴾ ، وسمى نفسه : (الجبار المتكبر) ، فقال : ﴿ العزيز الجبار المتكبر ﴾،وسمى بعض خلقه بذلك فقال ﷻ:﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار، وسمى نفسه : (عليما حليما) فقال : ﴿ والله عليم حليم ﴾ ، وسمى بعض خلقه بذلك ، فقال : ﴿ وبشروه بغلام عليم ﴾ ، وقال : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ ، وسمى نفسه : (سميعا بصيرا) فقال : ﴿ إن الله كان سميعا بصيرا ﴾ ، وسمى بعض خلقه بذلك ، فقال في الإنسان : ﴿ فجعلناه سميعا بصيرا ﴾ ، وهكذا آيات كثيرة تدل على أن هناك أسماءً مشتركة بين الخالق والمخلوق ، ولكن لا بد أن يُعلم أن

الفرق بين هذه الأسماء كالفرق بين الخالق والمخلوق ، فإذا قلنا : المخلوق عزيز ، فإن عزته تليق بخلقته وضعفه ، وعجزه وافتقاره ، وحاجته وقصوره ، وإذا قلنا : الله عزيز ، فإن عزته جل وعلا تليق بعظيم جلاله ، وكمال قوته وسلطانهﷻ فهي لا تقارب فضلاً عن أن تماثل عزة المخلوق ، وهكذا يقال في جميع الأسماء والصفات .

(ما يجب نحو أسماء الله تعالى وصفاته)

فكل اسم أو وصف أثبته الله تبارك وتعالى لنفسه فهو ثابت له على وجه الحقيقة اللائقة به جل وعلا ، من غير تعطيل ولا تحريف ، ولا تمثيل ولا تكييف ، على قاعدة أهل السنة والجماعة في ذلك المستندة إلى قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ ، فقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ فيه نفيٌ لمماثلته تعالى لشيء من خلقه ، فهو رد على أهل التمثيل والتكييف ، وقوله : ﴿ وهو السميع البصير ﴾ فيه إثبات الأسماء والصفات ، فهو رد على أهل التعطيل والتحريف ، فيجب أن يثبت لله تعالى ما أثبته لنفسه ، أو أثبته له رسوله ﷺ ؛ لأنه لا أحد أعلم من الله بنفسه جل وعلا ، قال تعالى : ﴿ قل أتعلِّمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله بكل شيء عليم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾، وقال تعالى : ﴿ ومن أصدق من الله قيلا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾، ولا أحد من الناس أعلم بالله تعالى من رسوله ﷺ قال تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولو تقَوَّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ ، ولا يلزم من اتحاد الأسماء اتحاد المسميات ، ولا من اتحاد الأوصاف اتحاد الموصوفات ، إذ لو كان هناك تلازم ما وصف الله نفسه بذلك ، فلما وصف نفسه بها ، ومنع المماثلة دل على أنه لا تلازم في ذلك .

(الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات)

ثم إن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات ، فإذا كان لا يلزم من إثبات الذات لله تعالى تمثيله بذوات خلقه ، فكذلك الأسماء والصفات ، فنحن نثبت لله تعالى ذاتا لا مثيل لها ، فكذلك أسماؤه وصفاته يجب علينا أن نثبتها له من غير تمثيل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وله المثل الأعلى ﴾ أي الوصف الأكمل ، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه ، وقال تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾ أي التي بلغت الغاية في الحسن ، والجمال والكمال ، ثم قال : ﴿ فادعوه بها ﴾ أي توسلوا إليه بها إذا سألتموه ودعوتموه ، فقولوا يا غفار اغفر لنا ، ويا رحمن ارحمنا ،

ويا رزاق ارزقنا وهكذا ، ثم قال : ﴿ وذروا الذين يلحدون في أسمائه ﴾ أي يميلون بها عن طريق الحق والصواب ، وذلك بتعطيلها أو تحريفها ، أو تمثيلها أو تكييفها ، ثم توعدهم فقال : ﴿ سيجزون ما كانوا يعملون ﴾ .

(إشكال وجواب)

فإن قال قائل : هل يعقل أن يتفق شيئان في الاسم ولا يتماثلان ؟ فالجواب عن ذلك : نعم ، وسنضرب لذلك مثلا في هذه المخلوقات للتقريب ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ ، حتى يتبين الفرق العظيم بين المخلوقات نفسها فضلا عن الخالق والمخلوق ، فالنملة مثلا لها رأس والجمل له رأس والجبل له رأس ، وهل رأس النملة يماثل رأس الجمل ، أو يماثل رأس الجبل ؟ بينهما فرق عظيم ، فلا يمكن لأحد سمع أن للنملة رأسا ، أن يمثله برأس الجبل أو الجمل ، فالنملة لها رأس يليق بجسمها وخلقتها ، والجمل له رأس يليق به ، والجبل له رأس يليق به ، وهكذا الأمر له رأس ، قال النبي ﷺ : (رأس الأمر الإسلام)، وكلها رؤوس اتحدت أسماؤها، ولكن الفرق بينها عظيم جدا ، فإذا كان الفرق عظيما بين المخلوقات ، فكيف يكون الفرق بين أسماء وصفات الخالق ، وأسماء وصفات المخلوق ، لا شك أنه أعظم وأعظم فلا مماثلة ، بل ولا مقاربة ، ﴿ وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

فالأسماء والصفات تختلف حقيقتها بحسب ما تضاف إليه ، لهذا كان الواجب في هذا الباب إثبات أسماء الله وصفاته على ما جاءت في الكتاب والسنة ، على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى ، من غير تعطيل ولا تحريف ، ولا تمثيل ولا تكييف ، لقوله ﷻ : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ ، وعلى ذلك إجماع أهل السنة والجماعة سلفا وخلفا ، وهو مذهب السلف الصالح رحمهم الله تعالى ، وهي العقيدة السهلة الميسرة ، الخالية من التعقيد والقلق، والاضطراب والشك ، بفضل الله وعلا .

(فائدة) : أسماء الله تعالى توقيفية لا يثبت شيء منها إلا بدليل، وهي كثيرة لا يحصرها إلا الله جل وعلا، قال النبي ﷺ : (أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك) رواه أحمد ، ومنها تسعة وتسعون اسما من أحصاها . أي حفظها وعمل بمقتضاها . دخل الجنة ، كما قال النبي ﷺ : (إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة) متفق عليه .

(مسائل تتعلق بالبسملة)

الأولى : اتفق العلماء على مشروعية البسملة عند قراءة أول كل سورة إلا سورة براءة ، قيل السبب في ذلك : هو أن معاني براءة والأنفال متشابهة ، فتركت البسملة لاحتمال كونهما سورة واحدة ، وقيل لأنها نزلت بالسيف ، والبسملة أمان ورحمة ، فلا تناسبها . والجمهور على عدم قراءتها عند ابتداء جزء السورة .

الثانية : اختلفوا هل البسملة آية من كل سورة ، أو بعض آية منها ، أو هي آية من الفاتحة دون غيرها، أو ليست آية وإنما كتبت للفصل بين السور ؟ على أقوال ، بعد اتفاقهم أنها بعض آية من سورة النمل ، في قوله تعالى : ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ . فقوله تعالى في الحديث القدسي : (قسمت الصلاة . أي الفاتحة . بيني وبين عبدي نصفين ، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل) يدل على أن البسملة ليست من الفاتحة ، وذلك أنه بيَّن تفصيل هذه القسمة ، فقال : (فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى : حمدني عبدي ، وإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله تعالى : أثنى علي عبدي، وإذا قال : مالك يوم الدين ، قال مجدني عبدي ، فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ، قال هذا بيني وبين عبدي ، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم ۞ صراط الذين أنعمت عليهم ۞ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ۞ قال : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل) رواه مسلم ، ووجه الدلالة من هذا الحديث من طريقين ، الأولى : أنه بين أن الفاتحة تبدأ بالحمد لله رب العالمين ، لا بالبسملة ، والثانية: أن الله قسم الفاتحة نصفين نصفا له ، وهي ثلاث الآيات الأولى (الحمد لله رب العالمين ۞ الرحمن الرحيم ۞ مالك يوم الدين ۞) ، ونصفا للعبد ، وهي ثلاث الآيات الأخيرة (اهدنا الصراط المستقيم ۞ صراط الذين أنعمت عليهم ۞ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ۞) وآية بين حق الله وحق العبد وهي: (إياك نعبد وإياك نستعين) التي قال الله فيها : هذا بيني وبين عبدي ، أي بين حقي وحقه ، فهذه سبع آيات هي السبع المثاني آيات الفاتحة ، ومن جعل البسملة آية من الفاتحة خالف ظاهر الحديث ، وجعل الآية الأخيرة آية طويلة لا تناسب ما قبلها، تبدأ من قوله تعالى: (صراط الذين أنعمت عليهم ..) إلى آخر السورة ، وأختل عنده هذا التقسيم في بيان التنصيف . وقول ابن عباس رضي الله عنهما إن

رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السور حتى ينزل عليه : (بسم الله الرحمن الرحيم) رواه أبو داود ، يدل على أنها أنزلت للفصل بين السور ، وهذا القول لا يعارض القول الأول ، ولهذا اختاره شيخنا العثيمين رحمه الله ، وحديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : (إذا قرأتم : الحمد لله ، فاقرؤا : بسم الله الرحمن الرحيم ، إنها أم القرآن، وأم الكتاب ، والسبع المثاني ، و(بسم الله الرحمن الرحيم) إحدى آياتها) ، رواه الدارقطني والبيهقي ، هذا الحديث يدل على أنها آية منها ، فالله تعالى أعلم .

الثالثة : هل يجهر بالبسملة في القراءة الجهرية أو يسر بها ؟ قولان للعلماء ، وسبب هذا الخلاف ورود بعض الأدلة التي يدل ظاهرها على عدم الجهر بها ، كحديث أنس في الصحيحين ، قال : صليت مع أبي بكر وعمر وعثمان فلم أسمع أحدا منهم يقرأ : (بسم الله الرحمن الرحيم) ، وفي رواية مسلم : (صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين ، لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها) ، وأدلة أخرى ظاهرها الجهر بها ، كحديث أبي هريرة أنه صلى فجهر في قراءته بالبسملة ، وقال بعد أن فرغ : إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ . رواه النسائي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم ، وحديث أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال : كانت قراءته مدا، ثم قرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، يمد بسم الله ، ويمد الرحمن ، ويمد الرحيم . رواه البخاري ، وحديث أم سلمة قالت : كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته : بسم الله الرحمن الرحيم ۞ الحمد لله رب العالمين ۞ الرحمن الرحيم ۞ مالك يوم الدين . رواه أحمد وأبو داود وغيرهما ، والذي يظهر في هذا المقام أن الإسرار والجهر بها كله جائز ، وأن التنويع أفضل والإسرار أكثر ، وبذلك تجتمع الأدلة ، والله تعالى أعلم، وقد أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر بها ، فلله الحمد والمنة .

الرابعة : تشرع البسملة في مواضع :

منها : عند الأكل ، لقول النبي ﷺ لربيبه عمر بن أبي سلمة : (قل باسم الله ، وكل بيمينك، وكل مما يليك) متفق عليه .

ومنها : عند الذبح ، لقوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ﴾ ، وقول النبي ﷺ : (ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكل ليس السن والعظم) متفق عليه .

ومنها : عند الجماع ، لقول النبي ﷺ : (لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال باسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن قضي بينهما ولد من ذلك لم يضره الشيطان أبدا) متفق عليه .

ومنها : عند الوضوء لقول النبي ﷺ: (لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه) رواه أبو داود وابن ماجه .

ومنها : عند دخول الخلاء ، لقول النبي ﷺ : (ستر ما بين أعين الجن وعورات بني آدم إذا دخل أحدهم الخلاء أن يقول : باسم الله) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه .

ومنها : عند دخول المنزل يقول : (باسم الله اللهم إني أسألك خير المولج وخير المخرج ، باسم الله ولجنا وباسم الله خرجنا ، وعلى الله ربنا توكلنا)، وعند الخروج منه يقول : (باسم الله توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله) رواه أبو داود والترمذي .

ومنها : عند دخول المسجد والخروج منه يقول : (باسم الله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، اللهم افتح لي أبواب رحمتك) ، وعند الخروج منه يقول : (باسم الله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، اللهم إني أسألك من فضلك) رواه أبو داود وابن ماجه .

ومنها : عند الصباح والمساء يقول : (باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم) رواه الترمذي وابن ماجه .

ومنها : إذا عثرت الدابة ونحوها ، فعن أبي المليح بن أسامة بن عمير عن أبيه قال كنت رديف النبي ﷺ فعثرت دابته فقلت : تعس الشيطان ، فقال : لا تقل تعس الشيطان ، فإنك إذا قلت ذلك تعاظم حتى يكون مثل البيت ، ويقول بقوتي . أي صرعته . ولكن قل : باسم الله ، فإنك إذا قلت ذلك تصاغر حتى يكون مثل الذباب) رواه أبو داود .

(الحمد لله رب العالمين)

قوله تعالى : ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ الحمد مبتدأ ، وهو الوصف بكمال الذات والصفات محبة وتعظيما، فإذا قلت : الحمد لله ، فقد وصفت الله جل وعلا بالكمال في ذاته وفي صفاته

وفي أفعاله ، محبة له وتعظيما ، فذاته كاملة من جميع الوجوه لا نقص فيها بحال ، وأسماؤه وصفاته كذلك كاملة من جميع الوجوه لا نقص فيها بحال من الأحوال ، قال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ، وقال أيضاً : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ، وَلَهُ الْمَثَلُ الأعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ والمثل الأعلى : هو الوصف الأكمل ، وقال جل وعلا : ﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾ أي التي بلغت الغاية في الحسن والجمال والكمال ، وكذلك الأفعال فإن أفعالهﷻ كاملة من كل الوجوه ، ولا نقص فيها ، لأنها مبنية على الحكمة والمصلحة ، والعدل والرحمة ، وخرج بقولنا : (محبة وتعظيما) المدح ، لأن الشخص قد يمدح آخر ، وهو لا يحبه ولا يعظمه ، وإنما يمدحه لأجل المال ونحوه ، بخلاف الحمد فإنه لا يكون إلا محبة وتعظيما ، و (ال) في قوله : (الحمد) للاستغراق ، أي جميع أنواع المحامد لله تبارك وتعالى .

وقوله تعالى : (لله) جار ومجرور متعلق بخبر محذوف تقديره : الحمدُ الكامل مختص ومستحَق لله تبارك وتعالى ، فهو المحمود سبحانه وتعالى على كل حال ، ولهذا كان النبي ﷺ (إذا أتاه الأمر يسره قال : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وإذا أتاه الأمر يكرهه قال : الحمد لله على كل حال) رواه ابن السني والحاكم ، فالحمد كله لله تعالى لكمال ذاته وصفاته ، وعموم نعمه وإفضاله على خلقه ، إذ ما من خير إلا وهو في الحقيقة منه وحده جل وعلا ، كما قال تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ .

وقوله تعالى : (ربِّ العالمين) هذا وصف لله تبارك وتعالى ، والرب في الأصل مصدر بمعنى التربية ، وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئا فشيئا ، وُصِف به الفاعل مبالغة ، كما وُصِف العادل بالعدل ، وهو ههنا ما جمع ثلاثة أوصاف : وهي الخالق ، والمالك ، والمدبر ، فالله جل وعلا ربُّ العالمين ، أي خالقهم ومالكهم ومدبر أمورهم ، فلا خالق إلا الله ، قال تعالى: ﴿ هل من خالق غير الله ؟ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ ، فله سبحانه وتعالى وحده الخلق والأمر ، أما غيره فلا يملك أن يخلق ولو مثقال ذرة ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس ضُرِب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره﴾ ، فغير الله جل وعلا

لا يستطيع أن يخلق شيئا ولو يسيرا ، وإنما الخالق هو الله جل وعلا ، وكذلك هو المالك سبحانه وتعالى ، فمالك هذه المخلوقات كلها هو الله جل وعلا، لا مالك لها إلا هو، قال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ﴾ ، أما الإنسان فإنه وإن كان يملك كما قال تعالى : ﴿ أو ما ملكت أيمانهم ﴾ إلا أنه يملك بتمليك الله إياه ، وليس تمليكا مستقلا ، ثم إن ملك الإنسان قاصر ، ولهذا لا يجوز له أن يتصرف في ملكه بما يشاء ، فلو أراد أن يحرق ماله لم يجز له ذلك ، ولو أراد أن يقتل عبده حرم عليه ذلك ، ولو أراد أن يقطع يده بلا سبب أو يفقأ عينه حرم عليه ، لأن ملكه مستمد من ملك الله جل وعلا فلا يجوز له أن يتصرف فيه إلا بما يرضي ربه جل وعلا ، قال تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما ﴾ ، وقال النبي ﷺ : (من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه ، في نار جهنم ، خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن شرب سما فقتل نفسه ، فهو يتحساه في نار جهنم ، خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن تردى من جبل فقتل نفسه ، فهو يتردى في نار جهنم ، خالدا مخلدا فيها أبدا) متفق عليه ، وكذلك هو المدبّر سبحانه وتعالى ، فلا مدبِّر لهذه المخلوقات إلا الله تبارك وتعالى ، فما من حركة ولا سكون في هذا الكون إلا وهو بتدبير الله جل وعلا ، لا مدبر له إلا هو ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وهذا الأمر مُسَلَّمٌ فيه حتى عند المشركين ، كما قال تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾ ، فهذه هي الربوبية العامة ، الثابتة لجميع الخلق ، وهي التي يكون مقتضاها الخلق والملك والتدبير .

وهناك ربوبية خاصة ، وهي تربيته جل وعلا لأوليائه وأصفيائه بالإيمان ، والتوفيق للطاعة، فيحفظهم ويدفع عنهم الشرور والآفات ، ويكملهم بأنواع الفضائل والكمالات ، ولعل هذا هو السر في كون أكثر أدعية رسل الله تعالى وأنبيائه بقولهم : (ربِّ أو ربنا) ، وذلك لأن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة ، كقول آدم وحواء : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ ، وقول نوح : ﴿ رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ﴾ ، وقول إبراهيم : ﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء ﴾ ، وقول موسى: ﴿ رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له ﴾ ، وقول سليمان : ﴿ رب اغفر لي وهب لي ملكا ﴾ ، وقول زكريا: ﴿ رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين﴾ ، وغيرها كثير .

و(العالَمين) جمع عالَم ، والعالَم هو كل ما سوى الله تعالى من المخلوقات ، فالملائكة عالَم، والجن والشياطين عالَم ، والإنس عالَم ، والأفلاك عالَم ، والحيوانات عالَم ، والنبات عالَم ، والجبال عالَم ، والبحار عالَم ، وهكذا كل ما سوى الله تعالى فهو عالَم ، مأخوذ من العلامة ، سمي بذلك لأنه علامة على خالقه وموجده ، كما قال الشاعر :

وفي كل شيء له آية ❁❁❁ تدل على أنه واحد

فقوله تعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ، أي الوصف بكمال الذات والصفات محبة وتعظيما كله مستحَقٌ للمعبود بحق ، الذي هو الله جل وعلا ، خالق جميع المخلوقات ، ومالكهم ، ومدبر أمورهم .

ومن تأمل في مخلوقات الله تعالى ، وتفكر في مصنوعاته جل وعلا ، تجلت له عظمة خالقها، وشمول تربيته للعوالم كلها ، صغيرها وكبيرها ، عاقلها وبهيمها ، جمادها ونباتها ، علويها وسفليها ، وظهرت له آثار تربيته لها ، وعظيم عنايته بها ، وحسن تدبيره فيها ، فسبحانه من إله لا يضاهى ، ومن ربٍّ كريم لا يُحصى فضله ولا يتناهى .

(الرحمن الرحيم)

وقوله تعالى : ﴿**الرحمن الرحيم** ﴾ ، أعيد هذان الوصفان بعد أن ذُكِرا في البسملة ترغيبا بعد ترهيب ، وذلك لأن الربوبية فيها معنى الترهيب ، فمقتضى تربيته جل وعلا لخلقه فيها شيء من التخويف ، لأجل هذا ناسب أن يُؤتَى بعد قوله : (رب العالمين) بما فيه ترغيب ، ولذلك قال : (الرحمن الرحيم) وهذه سنة الله ، فإن الله جل وعلا إذا خاطب عباده بما فيه ترغيب أعقبه بترهيب ، أو بما فيه ترهيب أعقبه بترغيب ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ ، انظر كيف جمع الله بين الترغيب والترهيب ، فقوله : ﴿ أني أنا الغفور الرحيم ﴾ ترغيب ، وقوله : ﴿ وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ ترهيب ، فهو غفور رحيم لمن تاب وأناب ، ورجع واستغفر ، أما من تمادى وظلم ، وبغى وتكبر فهذا يحتاج إلى الوصف الثاني ، وهو العذاب الأليم ، وقال تعالى :﴿ إن ربك شديد العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ ، وهذه عكس الأولى ، فالأولى أولا ترغيب ثم ترهيب، وهذه ترهيب ثم ترغيب، كقوله تعالى : ﴿ اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ﴾ حتى يكون العبد وسطا بين الخوف والرجاء ، بين الخوف من الله جل وعلا لينكف عن المعاصي فينجو من عذاب الله والنار ، وبين الرجاء ليقوم بالطاعات طمعا في رحمة الله تعالى وجنته ، فبالخوف يأمن من مكر الله ،

قال تعالى : ﴿ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ ، وبالرجاء ينجو من اليأس والقنوط من رحمة الله جل وعلا ، قال الله تعالى : ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ ، وقال عن إبراهيم : ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ .

(مالك يوم الدين)

وقوله : ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ المراد بالدِين هنا الحساب والجزاء ، كقوله تعالى : ﴿ أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمدينون ﴾ أي لمجزيون ؟ ومنه : (كما تدين تدان) ، ويوم الحساب والجزاء هو يوم القيامة، يوم تجزى كل نفس بما عملت من خير أو شر ، كما قال تعالى مفخما أمره : ﴿ وما أدراك ما يوم الدين ، ثم ما أدراك ما يوم الدين ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله ﴾ ، وقال تعالى في الحديث القدسي : (يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه) رواه مسلم ، فهو ﷻ وحده الذي يملك يوم الحساب والجزاء ، وهو يوم القيامة . ويطلق الدين ويراد به العمل ، كما في قوله تعالى : ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾، كقوله: ﴿ قل لي عملي ولكم عملكم ﴾ ، ويطلق ويراد به الشريعة الإسلامية ، كما في قوله تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ .

وفي الآية قراءتان : قرئ ﴿مَالِك يوم الدين ﴾ ، و ﴿مَلِك يوم الدين ﴾ ، فالمالك هو : المتصرف في الأعيان المملوكة كيف شاء ، والمَلِك هو : المتصرف فيها بالأمر والنهي ، والقراءتان صحيحتان وهما صفة لله تعالى .

فإن قال قائل : إن الله جل وعلا يملك يوم الدين ويملك أيضا بقية الأيام ، فلماذا خص ملكَه بهذا اليوم ، فقال : مالك يوم الدين ، مع أنه مالك يوم الدين وغيره من الأيام ؟ قال العلماء : لأن ملكه في ذلك اليوم أظهر ، أما اليوم فكثير من الناس يدعون الملك ، الملوك والرؤساء والناس كثير منهم يزعمون الملك ، أما في ذلك اليوم فتنتهي جميع الملكيات ، فلا يبقى ملك إلا لله ﷻ ، ولهذا يقول الله تبارك وتعالى في ذلك اليوم :﴿ لمن الملك اليوم ﴾ فلا أحد يجيب ، ثم يجيب نفسه بنفسه ، فيقول : ﴿ لله الواحد القهار ﴾ ، فخص ملكه بيوم الدين ، لأن ملكه في ذلك اليوم أظهر وأبلغ من ملكه في غيره من الأيام ، ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا ﴾ .

وفي وصفه جل وعلا بهذه الأوصاف عقب الحمد ، وهي كونه خالقَ الخلق ، ومالكَهم ، ومدبرَ شؤونهم ، المتصفَ بالرحمة العامة والخاصة ، اللازمة والمتعدية ، وكونه الذي يملك يوم الجزاء

، والذي له كامل التصرف فيه ، دليل على أن هذه الأوصاف علة في استحقاقه الحمد ، ولا أحد أحق به منه تعالى ، بل لا يستحقه أحد سواه ، لأن ترتب الحكم على الوصف مشعر بأن الوصف علة لذلك الحكم ، وأن من لم يتصف بذلك الوصف لا يستأهل ذلك الحكم ، فهو كقولنا : الجائزة للطالب المجتهد ، فإن الطالب استحق الجائزة بسبب اجتهاده ، وغير المجتهد لا يستحق الجائزة ، لأنه لم يجتهد ، وهكذا فالله جل وعلا استحق الحمد الكامل لأنه رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالكُ يوم الدين ، وغيره لا يستحق الحمد فضلا عن أن يعبد؛ لأنه لم يتصف بشيء من هذه الصفات .

وبعد أن فرغ ﷻ من بيان بعض أسمائه وبعض صفاته ، أرشد عباده أن يكونوا موحدين ، مخلصين له الدين ، فقال تعالى :

(إياك نعبد وإياك نستعين)

قوله تعالى : ﴿ **إياك** ﴾ مفعول به مقدم ، وقوله : ﴿ **نعبد** ﴾ العبادة في اللغة : هي الذل ، يقال : هذا طريق معبد ، أي مذلل وميسر للسير فيه ، والعبادة في الشرع : هي منتهى التذلل والخضوع لله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه ، محبة وتعظيما له سبحانه وتعالى ، ولهذا نجد الإنسان في الصلاة يضع أشرف شيء في جسده وأعلاه وهو الجبهة ، يضعها في الأرض والتراب ذلا وخضوعا لله رب العالمين ، ولو قال له أحد غير الله : سأعطيك الدنيا وما فيها واسجد لي سجدة واحدة ، فإن المؤمن لا يمكن أبدا أن يسجد لغير الله جل وعلا ، لأن هذا النوع من الذل والخضوع لا يكون إلا لله تبارك وتعالى ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ ، وقال النبي ﷺ : (لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها) رواه أحمد وابن ماجه ، وعرف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله العبادة بقوله : هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة . فالصلاة عبادة ، والزكاة عبادة ، والصوم عبادة ، والحج عبادة ، والذبح عبادة ، والنذر عبادة ، والدعاء عبادة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ﴾ أي ذبحي ﴿ ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ أي لربك ، فكما أنك لا تصلي إلا لله ، فكذلك لا تذبح إلا لله ، فالذبح عبادة ، ولهذا قال النبي ﷺ : (لعن الله من ذبح لغير الله) رواه مسلم، وقال تعالى في الدعاء: ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾ ، وقال

تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ فسمى الدعاء عبادة ، فقال : ادعوني ثم قال : يستكبرون عن عبادتي، ولهذا قال النبي ﷺ : (الدعاء هو العبادة) رواه أحمد وأهل السنن ، وهكذا بقية العبادات .

وفي تقديم المفعول به (إياك) . والذي حقه أن يكون متأخرا . دليل على إرادة الحصر ، فالمعنى إذاً : نعبدك وحدك ، ولا نعبد أحدا سواك ، ففيه وجوب الإخلاص لله جل وعلا في العبادة ، لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر ، كما هو مقرر في اللغة ، فهناك فرق بين قولك : ضربت زيدا ، وقولك : زيدا ضربت ، فقولك : ضربت زيدا ، لا يمنع أن تكون ضربتَ معه غيره ، كعمرٍو وبكر ، وقولك : زيدا ضربت ، يمنع أن تكون ضربت غيره معه ، إذ يكون المعنى : لم أضرب إلا زيدا ، فإذا قلت : (إياك نعبد) كان المعنى : لا نعبد إلا إياك يا ربنا .

وقوله تعالى : ﴿ وإياك نستعين ﴾ مثلها في تقدم المفعول به ، أي نستعينك يا رب وحدك لا شريك لك ، والاستعانة هي : طلب العون من الله جل وعلا ، لأن إضافة السين والتاء في الكلمة تدل غالبا على الطلب، والمعنى : لا نطلب العون إلا منك يا رب ، ففيه مشروعية الإخلاص في الاستعانة أيضا .

وفي قوله تعالى (إياك) وقوله : (اهدنا) التفات ، من الغيبة إلى الخطاب ، حيث كان الخطاب من أول السورة على الغيبة ثم انتقل إلى الخطاب ، وذلك يسمى الالتفات ، وهو هنا فيه فائدتان : الأولى : دفع السآمة عن السامع والقارئ ، وشد انتباهه لما يقال ، إذا رأى أسلوب الكلام قد تغير واختلف ، والثانية : فيه إشارة إلى أن العبد إذا ذكر الله ربه تقرب منه، فصار من أهل الحضور فناداه .

(أنواع الاستعانة)

وطلب العون على قسمين : منه ما هو عبادة لا يجوز صرفه لغير الله ، ومنه ما ليس عبادة فيجوز أن يستعان فيه بالمخلوق ، فالاستعانة التي هي تفويض الأمر كاملا ، والاعتماد الباطني ، والتبرؤ من الحول والقوة هذه عبادة لا تكون إلا لله ﷻ ، ولهذا قال النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما : (إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله) رواه أحمد والترمذي ، ولكن الاستعانة التي هي بمعنى المشاركة والمساعدة فهذه يجوز للإنسان أن يستعين فيها بمخلوق مثله ، بشرط أن يكون هذا المخلوق قادرا على إعانته ، كما قال الله

تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ ، وقال النبيﷺ : (وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة) متفق عليه ، فهذا من الاستعانة الجائزة ، وهي الاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه ، ولكن ينبغي أن لا يستعان بأحد من الخلق إلا عند الحاجة ، لعموم قوله : ﴿ إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ﴾ ، لما فيه من كمال تفويض الأمور ، والاعتماد فيها على الله تعالى وحده ، وفي ذلك كمال التوحيد ، ولهذا كان النبي ﷺ يبايع الصحابة على أن لا يسألوا الناس شيئا ، حتى إن بعضهم كان يسقط منه سوطه ، وهو على راحلته ، فينزل منها ليأخذه ، ولا يسأل أحدا أن يناوله إياه .

(الغاية التي خلق الناس من أجلها)

واعلم أن العبادة هي الغاية التي خلق اللهُ الجن والإنس من أجلها ، ومن أجلها أُرسِلَت الرسل وأُنْزِلت الكتب ، وخلقت الجنة والنار ، قال الله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ، وهي دعوة جميع الأنبياء والرسل قال تعالى عن دعوة نوح : ﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ ، وقال تعالى عن دعوة هود : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ ، وقال تعالى عن دعوة صالح : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ ، وقال تعالى عن دعوة شعيب : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾، وقال عن دعوة إبراهيم وبنيه : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بَنِي إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ، قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴾ ، وهكذا غيرهم من أنبياء الله ورسله ، عليهم صلوات الله أجمعين هذه كانت دعوتهم ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ ، وقال : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ .

ومن هنا نعلم أنه يجب على الثقلين من الإنس والجن أن يحققوا الغاية التي من أجلها خلقوا، حتى يفوزوا بخير الدنيا والآخرة ، ولا يجعلوا الدنيا أكبر همهم ، ومبلغ علمهم ، فإنها دار ابتلاء

وامتحان لا غير ، والحياة الحقيقية هي الحياة الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ أي الحياة الكاملة من جميع الوجوه ، فلا موت فيها ولا مرض ، ولا هم ولا حزن ، ولا شقاء ولا قذر ، بل نعيم في نعيم ، وليحذروا أن تشغلهم الدنيا عن الآخرة ، قال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وأْمُر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾، وقال ممتدحا إسماعيل عليه السلام :﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا ﴾ ، وقال عيسى عليه السلام وهو طفل في المهد : ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرا بوالدتي ، ولم يجعلني جبارا شقيا﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ .

(من ثمرات تحقيق العبادة)

وقد تكفل الله بالحياة الطيبة والأمن والاطمئنان ، والتمكين في الأرض ، وكشف الكربات والهموم والغموم، والنصر والعزة ، لمن آمن به وعمل صالحا ، وعبده فلم يشرك به شيئا، فقال تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ، ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم ﴾ ، وكذلك أهل الإسلام لو أنهم أقاموا القرآن ﴿ لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ ، وهكذا وعود كثيرة في كتاب الله جل وعلا وسنة رسوله ﷺ ، لمن حقق عبادة الله تعالى ، فآمن به ، وعمل صالحا ، ولم يشرك به شيئا .

وتخصيص العبادة والاستعانة بالله عز وجل أصل من أصول الإسلام ، ولهذا لما حقق ذلك المسلمون الأولون ، فأخلصوا الاستعانة بالله ، ولم يعبدوا إلا الله فقد فازوا فوزا عظيما ، في الدنيا والآخرة ، وأتوا بما أدهش العالم من النصر والفتح ، خلال سنوات قليلة ، ومدة معدودة تحقيقا لوعد الله جل وعلا ، ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وغرتهم

الحياة الدنيا ، ولم يحسنوا العبادة ولا الاستعانة ، فضعفوا وذلوا ، وذهبت ريحهم شذرَ مذرَ ، ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ .

وقُدِّمت العبادة على الاستعانة من باب تقديم العام على الخاص ، لأن الاستعانة من العبادة ، وفي عطف الخاص على العام دلالة على مكانة هذا الخاص بين أفراد العموم ، كقوله تعالى : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ أي جبريل ، أفرده تعالى بالذكر بعد دخوله في عموم الملائكة لشرفه ومكانته ، كما قال تعالى عنه : ﴿ ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثَم أمين ﴾ ، وأيضا اهتماما بتقديم حقه تعالى وهو العبادة ، على حق عبده وهو الاستعانة .

وفي إخلاص طلب العون منه جل وعلا بعد إخلاص العبادة له إشارة إلى أنهم إنما يعبدونه ويخلصون له الدين بعونه وتوفيقه لهم ، لا بحولهم وقوتهم، إذ لولا توفيقه إياهم ، وعونه لهم ما اهتدوا إلى ذلك سبيلا، كما قال النبي ﷺ :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ❁❁ ولا تصدقنا ولا صلينا

ولم يذكر معمول الفعل : (نستعين) لأجل إفادة العموم ، والمراد طلب المعونة في المهمات كلها ، أي على جميع أمور الدنيا والدين ، ولهذا لم يخصصها بقوله : وإياك نستعين على كذا فحذف المعمول ، وحذفه دليل على العموم .

وضمير الجمع في قوله : (نعبد ونستعين) للقارئ ولإخوانه المؤمنين ، حيث أدرَج عبادته في عبادتهم ، وخلط حاجته ضمن حاجتهم ، لعلها تقبل ببركة دعائه لإخوانه المؤمنين ، فإن النبي ﷺ قال : (من دعا لأخيه بظهر الغيب قال الملك الموكل به : آمين ، ولك بمثله) رواه مسلم ، وإشارة إلى الحرص على التآخي والتآلف والاجتماع ، ونبذ الفرقة والخلاف والنزاع، كما قال تعالى : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾ ، وقال : ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ ، وقال : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾.

(اهدنا الصراط المستقيم)

وقوله تعالى : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ ، فيه طلب الهداية من الله جل وعلا ، فالله جل وعلا من كرمه وجوده وفضله يرشد عباده أن يسألوه الهداية إلى الصراط المستقيم ، ليكرمهم بها .

(أنواع الهداية)

والهداية نوعان : هداية توفيق وتمكين ، وهداية دلالة وإرشاد .

فالهداية الأولى : وهي هداية التوفيق والتمكين والعمل لا يقدر عليها إلا الله جل وعلا ، وفي هذا يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ ، ويقول تعالى : ﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ ، ويقول : ﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ ، فلا يستطيع أحد من الخلق أن يوفق كافرا للإسلام ، أو يوفق عاصيا للطاعة ، ولهذا كان النبي ﷺ حريصا على هداية عمه أبي طالب فذهب إليه وهو في آخر ساعات حياته فدعاه إلى الإسلام ، دعاه إلى أن يقول (لا إله إلا الله) كلمة واحدة يحاج له بها عند الله تعالى ، فلم يستطع أن يهديه ، وكان آخر كلامه هو على ملة عبد المطلب ، فحزن النبي ﷺ فنزل قوله ﷻ : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ ، ولو أراد الله جل وعلا أن يجعل الناس كلهم أمة واحدة على الإيمان ما تخلف أحد منهم أبدا﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ بكلمة واحدة فقط ، كما قال تعالى : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمحٍ بالبصر ﴾ ، قال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾ .

والهداية الثانية : وهي هداية الدلالة والإرشاد والبيان هذه يقدر عليها النبيﷺ ، كما يقدر عليها أتباعه أيضا من العلماء والدعاة والمصلحين ، وفي هذا يقول الله جل وعلا لنبيه ﷺ : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ ، فأثبت له ﷺ الهداية فقال : ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾، وهناك قال: ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ ، فدل ذلك على أن الهداية قسمان : الهداية الأولى : هداية التوفيق والتمكين والعمل وهذه لا يقدر عليها إلا الله .

والثانية : هداية الدلالة والبيان والإرشاد ، وهذه يقدر عليها النبيﷺ كما يقدر عليها أتباعه من العلماء والدعاة والمصلحين ، فإنهم يستطيعون أن يدلوا الناس على الخير ويرشدوهم إليه ، ويبينوا لهم طريق الخير من طريق الشر ، كما قال الله تعالى : ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ أي الطريقين طريق الخير والشر ، وقال أيضا ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ أي بينا له طريق

الشكر ، وطريق الكفر ، وهو بعد ذلك بالخيار ، قال تعالى: ﴿ فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر ﴾ ، فإن كفر وأشرك فقد ظلم نفسه ، قال تعالى عن لقمان : ﴿ يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ وإذا ظلم نفسه فليتهيأ لوعيد الله جل وعلا في قوله : ﴿ إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾ ، وقوله : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ ، وقوله : ﴿ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ .

و(الصراط) هو الطريق الواضح البين ، و (المستقيم) الذي لا اعوجاج فيه ، كما قال تعالى : ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ۞ قيِّما ﴾ أي مستقيما ، و (الصراط المستقيم) هو طريق الإسلام ، وهو ما جاء به القرآن والسنة ، فإذا قال العبد : (اهدنا الصراط المستقيم) فقد سأل الله جل وعلا الهدايتين ، هداية الدلالة والإرشاد والبيان، وهداية التمكين والتوفيق والعمل ، وعليه فينبغي أن يستشعر القارئ هذا المعنى ، وهو أنه يسأل الله جل وعلا الهدايتين معا هداية العلم وهداية العمل ، فهو يسأل ربه أن يوفقه للعلم والعمل .

(إشكال وجواب)

فإن قال قائل : المؤمن مهتد ، لأنه قد تبين له الحق ، وعمل به ، فكيف يسأل الله جل وعلا الهداية ، وهو على هداية ، فالجواب عن ذلك : أن المؤمن حينما يسأل الله تعالى الهداية يسأله أمرين ، الأمر الأول : يسأله أن يثبته على ما هو فيه من الهداية حتى يأتيه الموت وهو على ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ، والأمر الثاني : يسأله أن يزيده هداية إلى هدايته ، وتوفيقا إلى توفيقه ، وعلما وبيانا إلى ما عنده من العلم والبيان ، فإن الهداية درجات ومراتب بعضها فوق بعض ، كما قال تعالى : ﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾ ، وقال تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ ، وهذا نظير قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمَنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ﴾ فإنه وصفهم بالإيمان وطلب منهم الإيمان ، أي اثبتوا على ما أنتم عليه من الإيمان ، واطلبوا منه الدرجات العالية ، وذلك أن الإيمان درجات ، بعضها فوق بعض ، يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية ، كما قال تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا

﴾ ، وقال تعالى : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا ﴾، وقال تعالى : ﴿ فأما الذين آمَنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ﴾ وقال تعالى : ﴿ ويزداد الذين آمنوا إيمانا﴾ ، وقال النبي ﷺ : (الإيمان بضع وسبعون شعبة ، فأفضلها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان) رواه مسلم ، ومن هنا ندرك السر في تخلف النصر عن كثير من المؤمنين ، مع أن الله تعالى وعدهم به في آيات كثيرات ، كقوله : ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ ، وذلك لضعف إيمانهم ، أو إخلالهم بالطاعة كما حصل في غزوة أحد ، وغزوة حنين .

(صراط الذين أنعمت عليهم ۞ غير المغضوب عليهم ولا الضالين)

وقوله تعالى : ﴿ **صراط الذين أنعمت عليهم** ﴾ بدل من قوله : ﴿ الصراط المستقيم ﴾ وبيان له ، والمعنى: أن هذا الصراط المستقيم الذي تسأل الله جل وعلا أن يهديك إياه هو صراط الذين أنعم الله عليهم ، أي طريقهم ومنهاجهم ، والذين أنعم الله عليهم أربعة أصناف : النبيون والصديقون ، والشهداء والصالحون ، كما بينهم ربنا جل وعلا في آية النساء بقوله: ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾ ، وصراطهم مبني على أصلين وهما : العلم والعمل ، ولهذا تستعيذ بالله من طريق المغضوب عليهم بقولك : ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ ، أي لا تهدنا صراط المغضوب عليهم ، وهم كل من علم الحق ولم يعمل به ، وعلى رأسهم اليهود ، الذين قال الله فيهم : ﴿ وباؤوا بغضب من الله ﴾ ، وهم يستحقون ذلك ؛ لأنهم خالفوا الحق عن علم وبصيرة ، ولهذا أنكر الله عليهم فعلهم هذا بقوله : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ أي كيف تأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ؟ فإنكم أولى الناس بالانتفاع بهذا الخير العظيم ، الذي تأمرون الناس به ، وهو الإيمان بمحمد ﷺ ، ولهذا قال : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي أما لكم عقول تحجزكم عن هذا السفه وهذا الضلال ؟ وتستعيذ بالله تعالى أيضا من طريق الضالين بقولك : ﴿ ولا الضالين ﴾ ، وهم الذين عملوا بلا علم ، ولهذا ضلوا الطريق وعلى رأسهم النصارى ، كما قال تعالى : ﴿ قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ﴾ ، فهم عبدوا الله جل وعلا بغير علم ، بل بجهل ، ولأجل هذا ضلوا عن سواء السبيل

، وأصل الضلال هو الانحراف عن الحق والصواب ، كما قال تعالى : ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ .

فهؤلاء هم الضالون ، وأولئك هم المغضوب عليهم ، فكل من علم الحق ولم يعمل به ففيه شبه باليهود ، وقد عرض نفسه لغضب الله تعالى ، وكل من عمل بلا علم ففيه شبه بالنصارى ، وقد عرض نفسه للضلال والبعد عن الحق ، فالعبد إذا سأل الله جل وعلا أن يهديه الصراط المستقيم ، وأن يعيذه من صراط المغضوب عليهم وصراط الضالين ، فإنه يسأل ربه تعالى أن يبين له ويوفقه إلى الطريقة المستقيمة ، والمنهج القويم ، الذي كان عليه الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ، وهو منهج العلم بالحق ، والعمل به ، ويعيذه من طريقة من يعلم الحق ولا يعمل به ، وهي طريقة اليهود ، وطريقة من يعمل بلا علم ، وهي طريقة النصارى ، ومن شابههم .

(فائدة) في إسناد الإنعام إلى الله سبحانه وتعالى في قوله : (أنعمت) ، وعدم إسناد الغضب إليه سبحانه وتعالى في قوله : (المغضوب عليهم) حيث لم يقل : غير الذين غضبت عليهم، مع أن كلا من عند الله تعالى ، أدب من آداب الدعاء والخطاب كما قال النبي ﷺ : (والشر ليس إليك) أي لا ينسب إليك ، لأن أفعاله تعالى كلها خير ورحمة ، وهي مبنية على المصلحة والحكمة ، وإنما الشر في مفعولاته ومخلوقاته ، فخلق الشيطان خير ، وفيه من المصالح والحكم ما الله به عليم ، كالابتلاء ليتميز الصادق من الكاذب ، والسعداء من الأشقياء ، وما يترتب على ذلك من رفعة الدرجات ، وتكفير الخطايا والسيئات ، ودخول الجنة أو النار .. إلخ ، والشيطان نفسه شر ، فهناك فرق بين فعل الله ، وهو خلقه الشيطان ، فهذا خير ، لما في ذلك من المصالح العظيمة ، وبين مفعوله ومخلوقه ، وهو الشيطان فإنه شر .
ولهذا الأدب نظائر في القرآن ، منها قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ، والذي هو يطعمني ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين﴾ ، فأسند الخلق والهداية ، والإطعام والسقاء والشفاء إليه سبحانه ، ولم يُسند المرض إليه ، حيث لم يقل : والذي هو يمرضني ، ومثل ذلك قوله تعالى عن الجن: ﴿ وأنَّا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾ ، فأسندوا الرَشَد إليه سبحانه ، ولم يسندوا الشر إليه ، حيث لم يقولوا : أشر أراد الله بمن في الأرض ، وإنما قالوا : أريد ؛ لأن الشر لا ينسب إليه تعالى .

(مشروعية التأمين عقب الفاتحة)

فإذا فرغ القارئ من قراءة الفاتحة شرع له أن يقول : (آمين) ، ومعناها : اللهم استجب ، أي هذا الدعاء ، قال النبي ﷺ : (ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين) رواه أحمد وابن ماجه ، وقال ﷺ : (إذا أمن الإمام فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه) متفق عليه ، وفي صحيح مسلم عن أبي موسى أن النبي ﷺ قال : إذا قال ـ أي الإمام ـ ولا الضالين ، فقولوا آمين يجبكم الله) . وروى أحمد وأبو داود والترمذي : عن وائل بن حجر قال : سمعت النبي ﷺ قرأ : ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ ، فقال : (آمين) ، مد بها صوته ، ولأبي داود : (رفع بها صوته) .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا وإياكم ممن أخلص له العبادة والاستعانة ، من الذين علموا الحق ، وعملوا به ، وأن يعيذنا وإياكم من مضلات الفتن ، ما ظهر منها وما بطن ، ومن ذلك طريقة اليهود المغضوب عليهم ، وطريقة النصارى الضالين ومن شابههم ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

(ملخص تفسير سورة الفاتحة)

سورة الفاتحة أعظم سورة في القرآن ، وفضلها عظيم ، وهي سبع آيات بالاتفاق ، اشتملت آياتها على معانٍ عظيمة ، ومباحث جليلة .

(١) ففيها : وصف الله تعالى بصفات الكمال والجلال ، وتمجيده والثناء عليه بما هو أهله، محبة وتعظيما، وإثبات ألوهيته ، وربوبيته .

(٢) وفيها : ذكره تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا .

(٣) وفيها : إثبات النبوات ، وتقرير المعاد ، ويوم الجزاء والحساب ، وهو يوم الدين ، يوم تجزى كل نفس بما كسبت من خير أو شر ، وإفراده تعالى بملكه ، فلا شريك له ، ولا منازع فيه .

(٤) وفيها : قصص الأمم وأخبارهم ، وبيان أقسامهم ، وعاقبتهم من الإنعام عليهم ، أو إضلالهم ، والغضب عليهم .

(٥) وفيها : إرشاد العباد إلى إخلاص العبادة له ، وتوحيده بالألوهية ، كما هو متفرد سبحانه بالربوبية ، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مثيل ، ووجوب تحقيق العبادة ، وهي الغاية التي خلق من أجلها الإنس والجان .

(٦) وفيها : إرشادهم إلى طلب العون منه وحده لا شريك له ، في جميع ما يأتون ويذرون ، ومن ذلك عبادتهم إياه ، وإخلاص الدين له ، والتبرؤ من حولهم وقوتهم ، إلا بالله العلي العظيم .

(٧) وفيها : إرشادهم إلى أن قيامهم بعبادته إنما هو بعون الله لهم وتوفيقه إياهم ، لا بحولهم وقوتهم ، فلولا عون الله تعالى إياهم على ذلك ما اهتدوا إليه سبيلا .

(٨) وفيها : إرشاد العباد إلى سؤاله الهداية إلى الطريق الواضح القويم ، الذي لا اعوجاج فيه ، وهو طريق الإسلام ، طريق العلم والعمل ، وطلبهم الزيادة منها ، وتثبيتهم عليها إلى الممات ، ليؤدي بهم هذا الطريق إلى جنات النعيم ، بفضل الله ورحمته .

(٩) وفيها : بيان أن الصراط المستقيم ، والمنهج القويم . طريق العلم والعمل . هو طريق ومنهج الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، الذين هم أحسن رفقة ، وأكرم صحبة .

(١٠) وفيها : إرشادهم إلى الاستعاذة به جل وعلا من طريقة المغضوب عليهم ، الذين علموا الحق ولم يعملوا به ، وعلى رأسهم اليهود ، وطريقة الضالين ، الذين عملوا بلا علم ، وعلى رأسهم النصارى .

(١١) وفيها : تعليمهم بعض آداب دعائه ومخاطبته ، من نسبة الخير إليه ، وعدم نسبة الشر إليه ، وختمه بطلب الاستجابة والقبول . نسأل الله تعالى أن يتقبل منا ما قدمنا في هذه الحياة من أعمال ، وأن يغفر لنا ذنوبنا ، ويتوفانا مع الأبرار ، ويقينا برحمته عذاب النار ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

كتبه : علي بن سالم بن يعقوب باوزير

بتاريخ : ١٥ / صفر ١٤٢٥ هـ

من منشورات المركز العلمي والدعوي
حضرموت . غيل باوزير . معيان الشيخ

منشوراتنا تطلب من مكتبة القدس
حضرموت . غيل باوزير